قالت العرب

وَعِلّة لَم تَدَع قَلباً بِلا أَلَم سَرَت إِلى طَلَب العَليا وَغارِبَها
هَل تُقبَلُ النَفسُ عَن نَفسٍ فَأَفدِيَهُ اللَهُ يَعلَمُ ماتَغلو عَلَيَّ بِها
لَئِن وَهَبتُكَ نَفساً لا نَظيرَ لَها فَما سَمَحتُ بِها إِلّا لِواهِبِها

المشهد

العدد 342 – السنة الثالثة عشرة – الإثنين 15 ديسمبر 2025 م - 24 جمادى الآخرة 1447 هـ

ما الذى سقط فى الشام؟

عندما سقط نظام "الأسد" فى سوريا، وفر بشار إلى موسكو، تناولت فى ردودى لبعض الإعلام موقفى مما حدث، وفوجئت بالسهام تناوشنى من مواقع كثيرة، كان أبرزها وأشدها ألماً الموقع القومى العربى أو من بعض أصدقائى فيه، وهم يدافعون عن بشار ويرفعونه إلى مصاف زعماء التيار القومى العربي، ويقولون أنه كان ضحية مؤامرة كونية لتمسّكه بأهداب القومية العربية ...إلخ.

وليس لدى أى غضاضة من إختلاف الرأي، بل أرحب به وأسعى إليه بإعتباره مساحات ضوء إضافية تتيح الرؤيا الشاملة، ولكن فى مواجهة إتهامات غير منصفة، تتجاوز مجرد الخلاف المحمود فى الرأى إلى حواف إغتيال الشخصية، مع حواشى لا لزوم هنا لتكرارها، وجدت نفسى أسطر المقال التالى الذى حمل نفس العنوان أعلاه "ما الذى سقط فى الشام"، ولا أدرى كيف لم أحاول نشره قبل عام.. ربما لحرصى على عدم زيادة شقة الخلاف، أو لمجرد أحوالى الصحية التى لم تكن مستقرة أغلب فترات العام المنصرم (وحتى الآن) ..

ولقد وجدت بى رغبة فى محاولة نشره، ربما لمجرد ترك تسجيل برأى ينضم إلى آراء أخرى قد يكون لها فائدة ما.. ما الذى سقط فى الشام حقاً؟

ربما يكون من المفيد فى البداية طرح بعض الملاحظات الهامة قبل الخوض فى التحليل:

اولا: ليس مفهوما غضب بعض المحسوبين على "القوميين العرب" حيال أى محاولة لإنتقاد نظام الأسد، أفلم يكن نظام الأسد (أب وابن بل وعائلة إذا أضفنا رفعت الأسد) فى سدة حكم سوريا لأكثر من نصف قرن؟، وأى حساب للنتيجة التى وصلت إليها سوريا لا يمكن أن يتفادى مسئولية ذلك النظام.

ثانياً: هل يحاول هؤلاء الربط الشرطى بين "القومية العربية"، وبين "الاستبداد" وشيوع الظلم والفساد؟... هل هناك دعاية أسوأ من ذلك لهذه القومية!.

ثالثاً: أن نظام الأسد لم يسقط بالأمس، بل سقط منذ زمن طويل حين قتل ما يزيد على ٤٠ ألفاً من مواطنيه فى "حماه"، ثم ما يزيد على نصف مليون خلال الحقبة الأخيرة، فضلا عن عشرات الآلاف من المعتقلين، وما يزيد على ٤ مليون مواطن اضطروا للفرار من بلادهم ويعيشون حاليا فى الشتات.

رابعاً: ثم أن هذا النظام لم يسقط بسبب أنه كان يقود المانعة ضد العدو الصهيوني، أو أنه كانت هناك مؤامرة كونية ضده، فمن الثابت أن نظام الأسد (أب وإبن) لم يطلق طلقة فى اتجاه العدو منذ انتهاء حرب أكتوبر ٧٣، وقد أثبتت الوقائع الحالية أن الكيان الصهيونى كان أكثر إطمئناناً فى وجود ذلك النظام (ولذلك سارع الكيان عندما أحس بالخطر بعد فرار بشار، إلى احتلال بعض المواقع الإضافية فى الأراضى السورية).

خامساً: ليس صحيحا أن تلك المانعة المزعومة هى التى أدت إلى تمزيق الخريطة السورية، بل أن ذلك النظام تسبب فى اقتطاع أجزاء كبيرة من التراب الوطني، من خلال سياساته الخاطئة التى اعتمد فيها على الإجراءات الأمنية والقهر، ولم يعد يستند إلى الرضا الشعبي.

سادسا وأخيرا (وليس آخرا): كاتب هذه السطور " قومي" ، و"عاشق" لسوريا منذ كانت "الأقليم الشمالي"، ويحزننى مزايدة البعض والمسارعة بإلقاء الإتهامات جزافاً بلا ترو .

ما حدث فى سوريا يعكس تلك الخصائص التى تعبر عن أزمة حكم أصبحت تجمع ما بين بعض الدول المتقدمة مع الدول المتخلفة، والأسباب كثيرة، أبرزها غياب الثقافة السياسية، وسيادة المفهوم الشمولى للحكم، وإهتزاز مرفق العدالة، ضمن خصائص أخرى تتعلق بالتاريخ والإقتصاد.

ومع ذلك يبقى بشار وأمثاله نماذج متطرفة، لذلك تتفجر من حولها الدماء.

ولا يبدو أن هناك دواء ناجع لهذه السموم التى تنخر بعض المجتمعات فى هذا الصدد، لأن تلك الخصائص السابق الإشارة إليها ليست مجرد أعراض طارئة يمكن مواجهتها بمضادات حيوية مناسبة، فعلى سبيل المثال "الثقافة السياسية" التى تتعامل معها أغلب هذه المجتمعات بإعتبارها "زائدة دودية"، لا يمكن علاجها من خلال إجراءات فوقية، مثل المؤتمرات والندوات، وما يشبه معسكرات الكشافة.

"الثقافة السياسية" هى نتاج تضافر عوامل عديدة أبرزها الممارسة الديمقراطية فى إطار كوابح دستورية مناسبة تحول دون التطبيقات المشوهة.

كذلك تلعب العملية التعليمية دورا هاما فى تأسيس المفاهيم الجوهرية التى تصبح كالنقش على الحجر بالنسبة للأجيال الناشئة.

كما يلعب الإعلام دورا ترويجيا هاما فى هذا الصدد، من خلال تناول ناضج (غير تعبوي)، كى تصل المعلومات الضرورية للمجتمع (حكاماً ومحكومين).

وأخيرا، وليس آخراً، تحتل مكانة لا تقل أهمية الصور التى تعكس المواقع السياسية والتشريعية، وكذلك الحزبية وجماعات الضغط المختلفة (كالنقابات والجمعيات الأهلية غير الهادفة للربح)، فبقدر سلامة وشفافية تلك المواقع وتحليها قدر الإمكان بالتطهر من آفة الفساد والشللية، بقدر ما تؤثر إيجابيا فى الوعى السياسى للمجتمع.

وغنى عن الذكر أن مسألتى "المفهوم الشمولى للحكم"، وتوازن مرفق العدالة وتنزهه عن عاهات السياسة، يتأثران كثيرا بما تقدم حول "الثقافة السياسية"، التى يمكن اعتبارها فى ذات الوقت سبباً ونتيجة لحماية المجتمع من تلك الآثار المدمرة مثل التى كشفت عنها أحداث سوريا.

وربما يمكن أن نرى بوضوح الآن، ما الذى سقط فى الشام، وليس فيه ما نبكى عليه، بعد أن أبكانا، وأبكى الملايين من السوريين (واللبنانيين) ردحا من الزمان، وذهب غير مأسوف عليه.

بقلم: معصوم مرزوق
* مساعد وزير الخارجية الأسبق

مشاهد فرح عارم أثناء إسقاط تماثيل الأسد بعد إعلان الفصائل المعارضة المسلحة دخول دمشق

شهادة المشير طنطاوى حول اكتفاء مصر الذاتى من القمح

تردد فى الآونة الأخيرة أن مصر يستحيل أن تكتفى ذاتيا من محصول القمح ولا بد من استيراده من الخارج، وللعلم فإن مصر تستورد حوالي٦٨٪ من احتياجاتها من القمح .

أما أسباب هذه الحالة فقد فسر القائلون بهذه النظرية الأسباب وهى نقص المياه وعدم توافر التربة الصالحة وعدم خبرة الفلاح المصرى .

فقد شاهدت المشير طنطاوى وزير الدفاع الأسبق عندما كان رئيسا للدولة المصرية خلال ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ وتصريحاته للقنوات المصرية لمن يريد أن يرجع إليها .

قال المشير إنه فى عام ٢٠١١ لم تكن الدولارات لدينا كافية لاستيراد حصتنا من القمح من أمريكا، فأمر الجيش ان يزرع قمحا على المطر بالساحل الشمالى وحده وفى هذه الحالة لا تضطر مصر إلى استيراد حبة قمح واحدة .

ولكن الرئيس أوباما فى ذلك الوقت اتصل بالمشير وقال له "سيادة المشير هل تنوى الاستقلال عن الولايات المتحدة عن طريق الاكتفاء الذاتى من القمح". وفهمنا وقتها من هذه الواقعة أن أمريكا تفرض علينا نسبة معينة من استهلاكنا، فالمسألة سياسية أكثر من كونها فنية.

تلك شهادة المشير طنطاوى الذى كان رئيسا للمجلس العسكرى الحاكم خلال الثورة. ومعنى ذلك ان مصر تستطيع الاكتفاء ذاتيا من القمح بدليل الاعتماد على زراعة الساحل الشمالى فقط على مياه الامطار . وبدليل آخر اتصال الرئيس أوباما بالمشير طنطاوى ومن أراد الرجوع لهذا التصريح فليرجع إليه محفوظا فى سجلات القنوات المصرية ولكن أمريكا تضغط على مصر حتى يظل القرار بيدها .

وتستطيع مصر ان تكتفى ذاتيا فى كل قطاعات الزراعة كما كان فى السابق، بشرط تأمين المياه وحصة مصر ثابتة فى هذا الموضوع .

والشرط الثانى هو أن الأرض متوفرة تماما، وقد قطعت النظم السابقة أشواطا كثيرة فى استصلاح الصحراء وتوفير الأرض القابلة للزراعة .

بل إنه فى مصر مركز للبحوث الزراعية لتطوير سلالات البذور. أما الفلاح المصرى فان له خبرة فى الزراعة لآلاف السنين، المهم أن تشجعه الحكومة وتعينه، لا أن تتربص به وتستغله وتتربح على حسابه.

كانت القرية تمد المدينة بكل لوازمها وكان كل بيت فى القرية يكتفى ذاتيا من كل شيء. ومصر أساسا بلد زراعي، فلا بد أن تركز على الزراعة والصناعات الزراعية.

وتشهد الستينات من القرن الماضى بأن مصر تم اختبارها ونجحت فى ذلك خاصة والقطن طويل التيلة ينسب لمصر وكانت هناك صناعات ملابس قطنية متطورة ورخيصة.

فليت الحكومة تنتبه إلى هذه الحقائق، حتى تتحسن أوضاع الناس، ولا يفر من تبقى من الفلاحين من حقولهم تحت وطأة الظلم والتضييق وعدم التشجيع.

بقلم: السفير د. عبدالله الأشعل

استدعاء الاستدعاء.. نقد ما جرى للدكتور عمار علي حسن

لا يكاد يخلو عصرٌ من العصور من وجود علاقة شدٍّ وجذب بين الأديب المفكر والسلطة الزمنية، ويخبرنا التاريخُ أنَ الحاكمَ قد اعتدى على الكثيرين من المفكرين الأحرار، حين وجد في أفكارهم تهديداً لسلطانه، وخروجاً عن أطروحاته الحاكمة وسياساته العامة التي رسمها للشعب الذي يحكمه.

وحين كتب المفكر والروائي الدكتور عمار علي حسن عبر صفحته الشخصية على الفيسبوك عن استدعائه للمثول أمام نيابة أمن الدولة العليا للتحقيق معه في القضية رقم ١٠٢٠٤ لسنة ٢٠٢٥م، والتي اختصمه فيها معالي الفريق وزير النقل بخصوص نشر الدكتور عمار أخباراً كاذبة عن الوزارة مما تسبب في تكبدها مئات الملايين بسبب نشره لتلك الأخبار، توالت ردود الأفعال من جميع محبيه وربما بعض حاسديه عبر تاريخه الفكري والأدبي، يؤيدون موقفه ويتضامنون معه، ومع مرور الساعات زاد عدد المتضامنين حتى جاوزوا القدرة على الحصر، بمواقف حية عبر الاتصالات المتنوعة والحضور الفعلي، وكذا ثبت في يقينهم أن السلطة بهذه الاستدعاء تعتدي على حرية الفكر والرأي.

لكن الدكتور عمار وهو الأستاذ في العلوم السياسية يدرك كيف يتعامل بحكمة مع مواجهة السلطة، فهو مفكر عضوي ذو نشاط ثقافي بارز في محيطه، وله تأثير واسع عبر مواقفه المعروفة للجميع، وزهده وترفعه عن كل ما يسلبه قيمته الكبرى، فلم يبحث يوماً عن منصب أو مكانة سياسية، ولم يهادن السلطة بمبادئه يوماً، كما أنه لم يخرج عليها هذا الخروج المخل بالشرعية والذي يهدم ولا يبني، بل كان حكيماً في تعاطيه مع السلطة.

ولكن علينا أن نحلل هذا الاستدعاء لنقف على كنهه ونحاول فهم معانيه الظاهرة والخفية.

فأولاً: في عصر الفضائيات المفتوحة والانترنت والفيسبوك وتويتر وغيرها يصعب إخفاء أي حدث مهما كان دقيقاً أو صغيراً، ويمكننا معرفة ما يدور خلف الكواليس.

ثانيا: صار باستطاعة الناس – الجماهير – الشعب – الناخبين – قوى الشعب – الأمة، أن تعبر عن رأيها ويصل رأيها للسلطة مباشرة، دون الحاجة إلى مراقبين ومحللين، والناس وخاصة في بلادي لا تستطيع كتمان مشاعرها وتوجهاتها الحقيقية.

ثالثاً: كان الأستاذ القدير نجيب محفوظ يؤكد في روايته الخالدة" أولاد حارتنا" أن آفة حارتنا النسيان، وهو إذ يؤكد على تلك الآفة التي كان يخشاها إنما كان ينهانا في الرواية عن النسيان، فإني أبعث إليه في مرقده عبر هذه المقالة لأؤكد له أن حارتنا تجاوزت هذه الآفة وقد تقدمت وسائط تكنولوجية عديدة تستطيع حفظ كافة الأحداث التي تجري في كل أركان العالم على جهاز صغير جدا يوضع في الجيب، ويتمُ استدعاءُ كل المعلومات ببساطة ويسر وسهولة.

رابعاً: إن السلطة الحالية مشغولة ببناء جمهورية جديدة، وهي إذ تبني مدناً جديدة، وترتقي بكافة مناحي الحياة المعاصرة فإنها لم تهمل الماضي، بل كنا نحتفل في الأول من نوفمبر مع العالم كله بافتتاح المتحف المصري الكبير، ونفخر بما به وبما حواه من نفائس عظيمة، فكيف لهذه السلطة أن تستدعي كاتباً في قيمة عمار علي حسن للتحقيق معه في قضية يختصمه فيها وزير بحجم الفريق كامل الوزير، متهماً إياه بالتسبب في خسارة الوزارة ملايين الجنيهات!

خامسا: تأكدت السلطة وتأكد الكاتب الروائي الكبير أن الحياة هي الناس، وأن الناس حين تجتمع على شيء تحميه وتقويه، وتزيده قوة وعطاءً، وهذا ثبت لكل ذي بصر وبصيرة من التضامن الواسع مع الدكتور عمار تجاه هذه التحقيقات.

سادساً: يمثل هذا الاستدعاء خطورة شديدة على السلطة الحالية، فنحن لا ننظر للسلطة باعتبارها مجرد مجموعة أفراد يديرون الوقت، ويسهرون على تدبير معايش وشئون وتصريف أمور الشعب، بل يجب علينا– وهكذا يجب أن تكون – قاطرة عبور بالشعب المصري لتحقيق أمرين هامين: – الأول: هو العبور إلى المستقبل الذي يحاكي ما صنعه أجدادنا وخاصة في عصر بناة الأهرامات. والأمر الآخر: هو العبور بالمصريين من كونهم شعباً إلى صيرورتهم الضرورية أن يصيروا أمة. فالشعوب لا تصنع حضارة بل مجرد استمرارية، أما الأمم فهي التي تمتلك ثروات ضخمة تصنع بها حضارة تبقى حقباً طويلة في التاريخ الإنساني الممتد.

لذا ننظر إلى هذا الاستدعاء بوصفه خروجاً وانتهاكاً للأسس الإستراتيجية التي يتبناها فخامة رئيس الجمهورية؛ لتتبوأ مصر مكانتها ليس في المنطقة فحسب بل في العالم كله.

سابعاً: ننظر نحن الأدباء والمفكرين والأكاديميين لهذا الاستدعاء بأنه تعطيل ممنهج لمسيرة البناء الفكري للإنسان المعاصر، وقد امتلأت الصحائف القديمة والحديثة بل والمعاصرة بالحديث حول الحريات، ومنع القمع، وقد أكد ألبرت هيرمان أينشتاين العالم الفيزيائي الأشهر أن الخيال أهم من المعرفة؛ فالمعرفة منتهية ومحدودة، أما الخيال فهو الذي يقود للمستقبل، ولو لم يفكر عباس بن فرناس وأمثاله في الطيران ربما تأخرت البشرية أكثر، وقل مثل هذا في كافة مناحي التطور الهائل في المجتمعات.

ثامنا: حين يقترب الإنسان البسيط من عمار علي حسن يجده جالساً مع الأصدقاء على المقهى يحتسي المشروبات الساخنة ويقول النكتة ويروي الفكاهة، ويعطي المعلومة المائعة، ويستمع للجميع بوصفهم زملاء في حين يكون أغلبهم تلاميذ على علومه ومعارفه وإبداعه، فالرجل جد بسيط بساطة العوام، ولكنه ممتلئ بالخير والعلم والإبداع، ويحمل في داخله إرث الفلاح المصري عبر القرون الطويلة الضاربة في التاريخ، وما رواية ملحمة المطاريد ببعيدة عن هذا كله.

وإني أوجه سؤالا للسلطات التي تجرأت على استدعاء هذه الحالة الفكرية والإنسانية العميقة التي تتمثل في كينونة عمار علي حسن، كيف غاب عنها قيمة الرجل الفكرية والإنسانية؟

وكيف غاب عنها أن عمار علي حسن وزملاءه المفكرين والمبدعين يمثلون دون المستكشف لربان السفينة؟ وأنه باستدعائهم ومثولهم أمام جهات التحقيق قد يعرقلون مسيرة عطائهم الفكرية والإبداعية؟

وقد أكدّ الرئيسُ في مناسبات كثيرة أن مصرَ ستعبرُ إلى مستقبل جديد، وكيف يكون المستقبل جديداً دون أن نسافر إليه بأذهانٍ متقدةً وخيالٍ منفتح، وإبداعٍ عظيم؟

إنيٍ عاتبٌ عًلى السًلطة، وًأعلم أنها لن تعاود هذه الأمور.

وأوجه رسالة للأديب المفكر الدكتور الألمعي عمار علي حسن، وأؤكد لسيادته أن عطاءه موفور، وأن سنوات عمره كانت زراعة أتت ثمارها في عقول وأفئدة كل من اتصل به أو بفكره أو إبداعه، وأنه على الصعيد الإنساني رجل وإنسانٌ قلما تجود به الأيام.

كن قرير العين مطمئن النفس؛ لتزداد إشراقاً بإبداعك في غياهب تلك الحياة، فدورك مثل قدرك إشعال الضياء لتبديد الظلام.

بقلم: د. علاء الدين سعد جاويش
* روائي وناقد أدبي

بورسعيد.. عودة النصاب إعادة إنتاج للهزيمة باعتبارها حكمة سياسية !

كان يمكن للحديث عن تمثال ديليسبس أن يبقى حوارًا ثقافيًا محدودًا، لولا أن المسألة انفجرت على نحو يكشف ما هو أعمق من قطعة برونز قديمة وما هو أبعد من قرار محلي. فكلما اقتربت الأصابع من منصة بورسعيد الخاوية، بدا كأنها تلامس عصبًا حساسًا في الوعي المصري، ذلك العصب الذي يفرّق بين الذاكرة الحيّة والذاكرة المصادَرة، وبين ما تريد الأمة أن تتذكره وما يريد البعض أن تُجبَر على نسيانه.

إن إعادة ديليسبس ليست عودة تمثال، بل عودة سردية كاملة؛ سردية المستعمر حين يتجمل في هيئة "مُحسن"، وحين يتحول العدوان في دفاتر البعض إلىً مشروع حضاري يستحق الاحتفاء.

المنصة التي ظلت خاوية منذ أن أُزيل التمثال عقب العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ لم تكن فراغًا عبثيًا، بل فعلًا مقصودًا، إعلانًا في الهواء الطلق بأن مصر لا تُخلّد من خدعها ولا ترفع فوق أرضها اسمًا من أسماء التواطؤ الاستعماري.

كان ذلك الفراغ نصًا بلا حروف، لكنه واضح بما يكفي ليقول إن التحرير ليس مجرد حدث في التاريخ، بل معنى يجب أن يحرسه الوعي.

المعركة اليوم حول إعادة التمثال إلى منصته التي انتزع منها ليست سوى دعوة بائسة إلى إلغاء هذا المعنى، واستبداله برواية ترى في الرجل فضلًا، وفي الاحتلال مشروعًا، وفي دماء العمال الذين حفَروا القناة مجرد تفاصيل يمكن محوها بقرار إداري.

الحجج التي يرفعها دعاة إعادة التمثال ليست جديدة. هي ذاتها التي رددها المستعمرون قبل قرن ونصف: إن ديليسبس "صاحب فضل"، وإن القناة مدينة له.

هكذا تُعاد صياغة السُخرة باعتبارها "مساهمة"، ويصبح موت عشرات الآلاف حادثًا جانبيًا في مسيرة "تقدم"، ويغدو الرجل الذي خدع الخديوي سعيد، وانتزع الامتياز بشروط مهينة، ومنح الأساطيل البريطانية طريقًا آمنًا نحو احتلال مصر، رمزًا صالحا للاحتفاء.

إنها محاولة مكشوفة لوضع التاريخ في قوالب زائفة، حيث تُجرَّم المقاومة ويُعاد إنتاج الهزيمة باعتبارها حكمة سياسية.

في الجوهر، فإن ما يطرحونه ليس مجرد رأي، بل رؤية للعالم: رؤية تعيد الاعتبار لمنطق التبعية، وتجرّم المقاومة، وترفع الهزيمة إلى مقام الرشد السياسي.

والمنصة الخاوية في بورسعيد، التي يحاول البعض ملأها اليوم، ليست نقصًا في معلم سياحي، بل جزءًا من ذاكرة المدينة التي قاتلت ببسالة في وجه العدوان الثلاثي.

لقد بقيت تلك المنصة فارغة لأنها تحمل معنى لا يستطيع التمثال أن يحمله؛ ولأنها تقول، بصمتها، إن البلاد قاومت. إعادة التمثال ليست ترميمًا لمشهد، بل محاولة لملء الفراغ بالهزيمة، وإعادة إنتاج سردية تجمّل المستعمر وتهين أصحاب الأرض.

إنها خطوة لا تُحرّك السياحة، بل تربك الوعي، وتحوّل تاريخ المقاومة إلى ديكور فوق منصة، لا تاريخًا يحرس مدينة.

ذلك الفراغ ليس عيبًا يستدعي الإصلاح، بل حضورًا آخر من نوع مختلف: حضور الكرامة حين تتجسد في مكان. وإعادة التمثال لا تعني تحسين وجه المدينة، بل تشويهه؛ ولا تعني تطوير السياحة، بل إرباك الوعي؛ ولا تضيف إلى تاريخ مصر شيئًا، بل تحذف منه الكثير.

أما ديليسبس نفسه، الذي يسعى البعض إلى تمجيده، فليس شخصية رمادية تقبل التأويل.

لقد كان نصّابًا دوليًا بكل المقاييس: خدع الخديوي سعيد وانتزع امتياز القناة بشروط مجحفة، ثم استباح دماء عشرات الآلاف من المصريين في أعمال السُخرة. وعندما نهض أحمد عرابي مدافعًا عن الوطن، تعهّد بأن تبقى القناة محايدة، لكنه فتحها للأساطيل البريطانية لتمرّ إلى قلب الدلتا، فكانت الخيانة أحد المداخل الكبرى للاحتلال. وحتى في أوروبا، حين توزّط في فضيحة قناة بنما، لم يُعرَف إلا كنموذج للنصب والاحتيال في القرن التاسع عشر.

ومن ثم، فإن الذين يطالبون اليوم بعودة تمثاله لا يعيدون رجلًا إلى منصة، بل يعيدون الاستعمار إلى الذاكرة الوطنية. يعيدون رواية حاولت مصر أن تطويها، لأن ثمنها كان دمًا واحتلالًا ونضالًا طويلًا.

والخطر ليس في وجود تمثال أو غيابه، بل في أن تُقدَّم للأجيال القادمة خلاصة معكوسة: أن المستعمر "صاحب فضل"، وأن المقاومة "مغامرة". وهنا تتحول القضية من نقاش حول البرونز إلى سؤال أعمق: أي مصر نريد أن نسلّمها لوعي الأجيال؟ مصر التي قاومت العدوان وحمت قناة السويس بدماء أبنائها، أم مصر التي تُكرّم من خدعها وسرقها وخانها؟

إن معركة ديليسبس اليوم ليست معركة حول تمثال، بل معركة على الجغرافيا الرمزية لمصر: من يروي القصة؟ ومن يملك الحق في كتابة ذاكرة وطن قاوم ودفع ثمن حريته؟ من يقف مع منصة خالية تحرس الشرف الوطني بصمت، ومن يقف مع تمثال يريد إعادة المستعمر إلى قلب المدينة؟

لقد خرج الاحتلال من الأرض، لكنه يحاول أن يعود إلى الوجدان. وهذه هي أخطر أشكال الهزيمة: أن نقبل نحن بأن نضع رموزه على صدورنا.

وهكذا يصبح السؤال الأخير واضحًا، لا يحتمل الالتباس:هل تريد مصر أن تكون البلد الذي حمى قناة السويس بدماء أبنائه، أم البلد الذي يكرّم من خدعها وسرقها وخانها؟

بين هذين الخيارين لا تقف تماثيل، بل تقف هوية كاملة.

بقلم: محمد حماد